المحاضرة السادسة: المدح في الشعر العربي القديم

المدح فن الثناء ولغة التقدير، ومجال الفضائل والمثل تخليد القيم والأخلاق، وقد ساير هذا الغرض ظهور القصيدة العربية منذ عهدها الأول، وكان أرضا خصبة للشعراء منذ الجاهلية، إذ تبارى الشعراء وتنافسوا في إبتكار وتكثيف الصورة المثالية للممدوح إما عرفانا بالجميل أو طلبا للنوال، أو رغبة في الصفح والمغفرة أو طمعا في الظهور والحظوة عند هذا الممدوح (سيد العشيرة)، حيث كانت قصيدة المدح معبرة عن التحولات والتطورات التي أملتها ظروف كل عصر، وفرضها سلم القيم الذي كان سائدا فيه، ونحن في هذه المحاضرة نحاول أن نرى كيف كانت هذه القصيدة بما فيها من موضوعات ومضامين سجلا حافلا بتغيرات الحياة العربية منذ العصر الجاهلي حتى أواخر الأعصر العباسية.

- **تطور مضامين قصيدة المديح**

1- في الجاهلية:

إذا عدنا إلى كتب تاريخ الأدب العربي نحاول استقراء واقع قصيدة المدح في العصر الجاهلي المبكر لاحظنا أن المعاني التي يدور حولها شعر المديح «كانت مستمدة من بيئة العرب الصحراوية ومجتمعهم الذي يعتمد على الفروسية، فكان الشعراء يمدحون بالجود والعزة والشجاعة والإباء والفتك بالأعداء، وإكرام الضيف، ورعاية حقوق الجار، وصفاء النسب»[1]، أي أن المديح كان يهتم في المقام الأول بمدح القيم الإنسانية للمحافظة عليها وترسيخها في النفوس.

والملاحظ أنه مهما كان الاختلاف في مضامين المدح بين العصور إلا أن هذا لا ينفي اتفاقها في بعض الفضائل ذات الصبغة الانسانية والحاملة لمدلولات زمانية خالدة،

ومن ذلك الفضائل التي أحصاها قدامة بن جعفر وهي: العقل والعفة والعدل والشجاعة[1]، والتي لحقها الكثير من التفريعات تناسبت وتطور مستوى التفكير من عصر إلى آخر، وقد أشار إليها ابن رشيق في العمدة.[2]

وتمتاز قصيدة المدح في تلك الحقبة بالصدق والعفوية، تتوهج بالعاطفة بعيدة عن التكسب، وقد وصفها ابن رشيق بقوله: «وكانت العرب لا تتكسب بالشعر، وإنّما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة على يد لا يستطيع على أداء حقها إلّا بالشكر إعظاما لها، كما قال **امرؤ القيس بن حجر** يمدح بني تميم:[3]

أقّر حشا امرؤ القيس بن حجر بنو تـــيم مصـــابيح الظـــلام

فقد نظم الشعراء العرب في المديح منذ الجاهلية بدافع الإعجاب بالفضائل المتعارف عليها، كإعجاب زهير بن أبي سلمى بـــ"الحارث بن عوف" و"هرم بن سنان" اللذان أصلحا بين عبس وذبيان وحقنا دم غطفان فكانا جديرين بالمدح يقول:[4]

يمينًا لـــنِعْمَ السَّـــيِّدَانِ وجـــدتما على كلّ حَالٍ من سَحيل ومبـــرم
تداركتما عبسًا وذبيـــان بعـــدما تفانوا وذَوقُوا بينهم عِطر منشَـــمِ

إذ المديح في القديم كان مدحا تشكريا يجزله الشاعر لمن أحسن إليه أو إلى ذويه وهو اعتراف بالجميل، فقصيدة المدح المبكرة كما قال الباحث وهب رومية «لا تسأل ولا تستجدي بل تحمد الجميل لأهله، وتعترف بالمودة، إنّها بطاقة شكر رقيقة لا يرى الشعراء فيها بأسا على اختلاف منازلهم في قومهم».[5]

---

[2]- تفرعت فضيلة العقل إلى أنواع منها ثقافة المعرفة، والحياء وغير ذلك، أما فضيلة الشجاعة فقد دخلت فيها الحماية والأخذ بالثأر والدفع عن الجار والنكاية في العدو وقتل الأقران والمهابة والسير في القفار الموحشة، وما شاكل ذلك، أما العدل فقد أصبحت فيه السماحة والتغابن والانظلام، والتبرع بالنائل والإجابة للسائل...؛ ينظر العمدة في محاسن الشعر ونقده، ص: 132/2.

وهذه الآراء- في الحقيقة- تصدق على قصيدة المدح المبكرة، لكنها دون شك تختلف عن قصيدة المدح في أواخر العصر الجاهلي، فقد جاءت طائفة من الشعراء فأدخلت قصيدة المدح إلى سوق الكسب وبيع الشعر، وابتعدت بها عن واقع القبيلة، وسخرتها لخدمة شخصها وجمع المال، فقد أصبح فن المديح صناعة يبيعها الشعراء عند أعتاب الملوك والزعماء خاصة المناذرة والغساسنة الذين فتحوا قصورهم للشعراء، وأغدقوا عليهم بالمال، يقول **النابغة الذبياني** في مدح الغساسنة واصفا ملكهم وكرمهم مع تدينهم:[1]

رفاق النِعَال طيــبٌ حجــزاتهم يحيونَ بالريحان يوم السباســب
تحييهم بــيضُ الولائــد بيــنهم وأكسية إلّا ضريج فوق المشاجب
لهم شيمة لم يعطها الله غيــرهم الجود والأحلام غيــر عــوازب

إذن فللمديح مرجعيات تقوم على وجهين أساسيين هما: العاطفة الصادقة من الوجدان المخلص، وفيها إقرار بالفضل والتنزه عن السؤال، وجهة أخرى في التكسب لغاية يأمل الشاعر تحقيقها، يقول **البحتري**:[2]

هو بحر السماح والجود فــإِزْدَدْ منه قربًا تزدَدْ من الفقــر بُعــدًا

أمّا عن **بنية قصيدة المديح**، فهي تمتد وتتسع لأغراض متعددة ومتشعبة تشعب الحياة الجاهلية واتساعها، إذ لم يكن في الجاهلية قصائد مستقلة، بل كان المديح جزءًا من قصائد تبدأ بالغزل ثمّ بالفخر ثمّ بالمديح ثمّ بالوصف ثمّ بالخمر وما إلى ذلك، ولم يتخذ المديح استقلالية خاصة إلا في العصور التالية.[3]

ويرسم ابن رشيق صورة عامة لهذه القصيدة فيقول: «والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفارز وما أنضى من الركائب وما تشجم من هول الليل وسهره، وهول النهار

وهجيره، وقلة الماء وغؤوره ثمّ يخرج إلى مدح المقصود ليوجب عليه حق القصد، وذمام القاصد، ويستحق منه المكافأة».[1]

2- في العصر الإسلامي:

وإذا مضينا نحو فترة **صدر الإسلام**، لاحظنا أنّ الشعراء المخضرمين قد بنوا قصائدهم المدحية على غرار مدائح الجاهليين، فقد نهجوا نهجا من حيث المقدمة وانتقاها إلى الرحلة التي تنتهي في خاتمتها بالمدح، فجاءت قصائدهم جاهلية في شكلها الفني إلّا فيما أضيف إليها أحيانا من خيوط جديدة نسجت في ثوبها لتضفي عليه الجدّة والتجديد، «فهي تتميز بظاهرة التخفف من المقدمات بضروبها جميعا، والتخفف من الرحلة باستمرار، فلا يفتتح الإسلامي الجديد مدائحه بمقدمة في الغزل والأطلال أو أي لون من المقدمات، ولا يرحل في هذه المدائح فيقطع الصحراء على ظهر ناقته، أو ينطلق خلف حيوان الصحراء، ولكنه يشرع في المدح مباشرة على نحو ما نعرف في تعدد موضوعات المدح».[2]

ولما كان لقصيدة المدح في زمن الفتحات رسالة لابد أن تؤديها، وكان عليها أن تدافع عن الدين الجديد وتمدح رسالته، وترد كيد المشركين، نجد- إذا أمعنا النظر في دواوين الشعر الإسلامي- أنّ قصيدة المدح تمتزج غالبا بالفخر والهجاء، فالفخر فخر بالدين الجديد أو بالحزب، وكذلك الهجاء تغلب عليه الصبغة السياسية أيضا، ويمثل **كعب بن مالك** هذه المرحلة تمثيلا حسنا حيث يقول:

فينا الرسول شهابُ ثمّ يتبعه نور مضيء له فضلُ على الشُّهب

الحق منطقه والعدل صورته ضمن يُجبْهُ إليه ينجُ من تَبِبِ

فالشعر في هذه المرحلة يعبر عن التزام بقضية الدين الجديد، ويمدح القيم والفضائل الجديدة التي أقرها، وبذلك فقد فتح الإسلام آفاقا لتطوير قصيدة المديح بإثراء

المعجم الشعري والحقل الدلالي الخاص بالمدح، مضيفا إلى الفضائل الثابتة التي تغنى بها المدح الجاهلي معانٍ جديدة كالعدل وإيتاء الزكاة، والحج، والصوم، والجهاد، والتقوى، فأصبح مدح الشعراء مشبعا بالمعاني الدينية، وهذا يمثل أوّل تطور **موضوعي** في قصيدة المديح، حتّى أنّه استجابة لهذا المطلب ظهر تيار جديد في المديح هو **مدح النبي- صلى الله عله وسلم-** بحيث توجه الشعراء إلى ذكر صفات خير الأنام وشمائله والتغني بخصاله وقيمه الإنسانية الإسلامية، من ذلك قصيدة "البردة" التي يمدح فيها **كعب بن زهير** الرسول الكريم-صلى الله عليه وسلم- قائلا:[1]

أُنْبِئْــــتُ أنّ رســـولَ الله أوعـــدني والعَفْــوُ عنــد رســولِ الله مــأمولُ

مَهْلاً هَــدَاكَ الّــذي أعطــاك نافلــة القــرآن فيهــا مــواعيظ وتفصــيلُ

إنّ الرسولَ لســيفٌ يستضــاءُ بــه مُهُنَّــدُ مــن سُــيوفِ الله مَسْــلوُلُ

كما زخرت كذلك قصائد **حسان بن ثابت** بمدح الرسول- صلى الله عله وسلم- حتّى سمي شاعر الرسول، وبذلك تحول المدح من التكسب إلى الدين، فالجدير بالذكر أنّ قصيدة المدح في هذه المرحلة، قد اختلفت عن سابقتها من حيث الهدف، فالشاعر الإسلامي

-غالبا- لا يمدح بهدف التكسب ورغبة في التوسل والاستجداء، وإنّما يمدح دفاعا عن الدين الإسلامي الجديد ونشر الرسالة التي آمن بها، فكان مديحه ضربا من الجهاد الديني يُكمل به إيمانه ويعمقه.

أمّا المديح في **العصر الأموي**، فقد اصطبغ بالصبغة الحزبية السياسية مع تحول العصبية القبلية إلى عصبية حزبية، إذ نشأت الأحزاب ولكل حزب شعراء انحازوا إليه، فكان هناك حزب الأمويين وحزب الشيعة وحزب الخوارج، وحزب الزبيريين وانحاز كلّ شاعر إلى حزب معين يمدحه بأنّه الأحق بالخلافة ويهجو معارضيه، وشجع الخلفاء

الأمويون الشعراء على المدح وأغدقوا عليهم الأموال حتّى تهافت الشعراء على الخلفاء والولاة والقادة وبالغوا في صفات الممدوح لدرجة كبيرة[1]، فقد كان الحكام يدفعون بسخاء ليشتروا ألسنة الشعراء المدافعين عنهم، ومن هنا فقد امتازت قصيدة المدح الأموية بالتكسب والسؤال في سبيل الغنى المادي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ تشبع القصائد بالمعاني الإسلامية ودخول العناصر السياسية كمعانٍ جديدة تنتشر في شعر المديح ليس هو كلّ ما ميز قصيدة المدح الأموية، فأول ما يلفت النظر «في قصيدة المدح الأموية تلك الملائمة البارعة بين العناصر التقليدية الموروثة التي كان المدح القديم يعتمد عليها، والعناصر الجديدة المستحدثة التي نفذ إليها الشعراء من خلال ظروف حياتهم التي يحيونها»[2]، كملائمة الكثير من الشعراء كعبد الله بن قيس الرقيات بين ملامح النهج الجاهلي في قصائدهم مع افتتاح مدائحهم بمقدمات تقليدية، والتي تتلون بين الطلل والغزل والشكوى والشيب والشباب ثم الانتقال إلى الرحلة والانتهاء إلى المدح بموضوعاته.

3- في العصر العباسي:

أما في **العصر العباسي** فقد تغيرت الحياة الاجتماعية تغيّرًا ملحوظًا، واتسعت رقعة الدولة وتشعبت أمور الحكم، وتعددت الثقافات والعلوم وهذا ما أدى إلى تغيرات في موضوعات الشعر عامة، وفي قصيدة المدح خاصة.

ولعل أول التغييرات التي أصابت قصيدة المدح بدأت بالمقدمة، فقد سلك الشعراء مسالك عدة، إذ هناك- أغلب العباسيين- من حافظ على المقدمات القديمة من حيث الشكل الخارجي ولكنهم صاغوها في صورة جديدة، مجددين في تفاصيلها وأجزائها، مولدين في معانيها وصورها، مضيفين إليها صورا مبتكرة من نتاج خيالهم وفكرهم المستمد من روح العصر الحضاري، وهناك من عمل على تقصيرها وعدم إطالتها، وهناك من حاول

استبدالها بالمقدمة الخمرية كما فعل أبو نواس، إذ من الناحية الموضوعية ""لم تعد المقدمات أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على الأطلال والمنازل، وعلى عهود الحب الضائعة فحسب، بل تحولت عند بعضهم إلى منابر يعلنون من فوقها آرائهم في الحياة»[1]، ويستغلونها في إظهار مشاعرهم والتعبير عنها لدرجة أن الشاعر في بعض الأحيان يستغرق جزءا كبيرا من القصيدة في التعبير عن ذاته، ولنا مثال في ذلك في مدح **الشاعر النمري** لهارون الرشيد قائلا:[2]

يـــا زائـــرين مـــن الخيـــام حيَّـــــاكم الله بالســـــــلام
لـــم تطرقـــاني وبـــي طـــرق إلـــى حـــــلال ولا حـــــرام
هيهـــات للهـــو والتصـــابي وللغـــــــواني وللمـــــــدام
أقصر جهلـــي وتأتـــأ حلمـــي ونهنـــه الشـــيب مـــن عـــرام
لله حبـــــي تَـــــربَ حبـــــي ليلـــــة أعياهـــــا مـــــرام
بـــورك هـــارون مـــن إمـــام بطاعـــــة الله ذو اعتصـــــام

فقد حدد الشعراء المكان، وعددوا بقايا الطلل وحادثوه، ولكنهم في الوقت نفسه ضمنوا أحاديثهم نظرة جزئية للحياة، ونظرات فلسفية حول الفناء وأنّ الحياة مآلها الفناء، وقد عبر **بشار بن برد** عن ذلك في صدر بائيته في مدح عقبة بن نافع:[3]

يا دار بـــين الفـــرع والجنـــابِ عفـــا عليهـــا عُقـــبُ الأحقـــابِ
قـــد ذهبـــت والعـــيش للـــذهاب كما عرفناهـــا علـــى الحـــزابِ

تكشف هذه الأبيات وسابقتها عن التحويرات التي عرفتها قصيدة المدح في العصر العباسي بدءا بالموضوع الّذي صار مصبوغا بصبغة **دينية** أكثر، حيث بدأ الاهتمام

ينصب على الفضائل المعنوية الفردية- كالمدح بالتقوى، وبطاعة الله، والالتزام بالدين....-أكثر من الصفات الحسية أو الاعتبارات القبلية، كما نلمح إشارة إلى اللّغة والأوزان التي أصبحت تميل إلى الرقة والبساطة، فقد سجلت قصائده رقيقة جيدة خرجت عن قاعدة الجزالة وقوة اللّغة التي كانت المشهد العام لمعظم شعر المديح، ومن ذلك ما نجده عند **أبي العتاهية** في قوله:[1]

أَتَتـــــهُ القيـــــادة منقـــــادة ... إليـــــه تجـــــرر أذيالهـــــا

ولـــم تكـــن تصـــلح إلّـــا لـــهُ ... ولـــم يكـــن يصـــلح إلّـــا لهـــا

ولـــو راغهـــا أحـــد غيـــرهُ ... لزلزلـــت الأرض زلزالهـــا

ولو لم تطعـــهُ بنـــات القلـــوب ... لَمَـــا قَبِـــلَ الله أعمَالهـــا

فرغم أنّ هذه الأبيات موجهة بالمدح للخليفة غير أنّها تغيب عنها فخامة التعبير وجزالة اللفظ، التي تعد من مستلزمات قصيدة المدح وأدب البلاط بصفة عامة، فهي مظهر من مظاهر الجدية والجلال، وفي هذا الموقف يستوقفنا ذكر قصائد أبي تمام مع المعتصم بالله وبخاصة في قصيدته فتح عمورية، وكذا مدائح المتنبي مع سيف الدولة الّذي أعاد لقصيدة المدح هيبتها مع ما حواه خطابه المدحي من فخامة التعبير وإيحائية الصورة الشعرية التي تتناسب وعظمة شخص الممدوح، لقد أصبح فن المديح في العصر العباسي يلعب دورا مركزيا، فهو الّذي يساهم في إحداث الاستقرار السياسي عندما يشيد الشاعر بشجاعة الممدوح ودفاعه عن الحمى ليعلي راية الدين، فالممدوح شجاع وكريم بل أسد في الحرب، وسحابة في الكرم.

والجدير بالذكر أنّ شعراء العصر العباسي- غالبا- قد أضفى على مديحهم طابع **الحماسة والدين والسياسة**، ورسموا من خلال ذلك صورة الممدوح لأن تلك المزايا لا يمكن الفصل بينها في ذلك العصر- لازدهار التيارات المتصارعة-، فقد «تحول شعر

المديح إلى شعر سياسي ومذهبي مدعوم بالأسانيد والحجج الدينية والفقهية»[1] كما قال مصطفى هدارة.

وهنا التفت الشعراء إلى المجتمع وما يعانيه، وأدخلوا ذلك في قصائدهم، وكانت- بالضرورة- فكرة الأحقية في الخلافة نواة شعر المديح السياسي بل والشعر السياسي بشكل عام، وهذا ما نلمسه في قصائد **أبي دلامة، ونصيب، ومروان بن أبي حفصة، ومنصور النمري** وغيرهم من الشعراء الذين احترفوا **وتخصصوا** في غرض المديح، فارتفع صوت المال في قصيدة المدح العباسية[2]، وارتفعت معه نزعة **التجويد والاحترافية** بين الشعراء الذين تباروا في إثارة الممدوح بكل الأدوات الممكنة، وتنافسوا في إبداع أجمل الصور المدحية وأقواها تأثيرا، فأضافوا إلى معاني المديح وصوره القديمة خيوطا جديدة تناسب الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة.

تلك إذن أهم التطورات التي عرفتها قصيدة المديح منذ العصر الجاهلي إلى غاية العصر العباسي على المستويين الموضوعي والفني، استجابة لقيمة المدح، بوصفه فنا أقرب إلى أن يكون إنجازا رسميا شديد الخطورة يرتبط بالبلاطات والأعيان، وبالسلطة والسياسة بشكل عام، كما أنه وثيق الصلة بالأخلاق بسبب ما يعبر عنه من قيم ومثل أخلاقية، وبهذا فإن قصيدة المدح قد عبرت عن **ذوق عصرها** متفهمة أن محتوى الشعر يتغير بتغير الظروف، وأن للشعر وظيفة اجتماعية لابد أن يؤديها في كل عصر، لذا كان لابد لهذه القصيدة المدحية أن تتحول وتتطور، ويعود ذلك إلى اختلاف الرسالة التي تحملها هذه القصيدة وكان عليها أن تنشدها وتعبر عن حياة أصحابها وعصرهم تعبيرا صادقا يصور الحياة العربية في كل مراحلها.

---

[2]- قد بلغ المديح التكسبي أوجه في العصور العباسية، فبشار مثلا لا يفتأ يذكر ممدوحه إلا مدحه طمعا في العطاء، يقول في مدح خالد البرمكي:

لعمري لقد أجدى علي ابن برمك ... وما كلّ من كان الغنى يجدي

حلبت بشعري راحتيه فدرتا ... سماحًا كما درَّ السحاب مع الرعد